

أم كلثوم: أسطورة أم قصة إرادة!

هند الصوفي عساف

تطمح هذه الدراسة إلى تحليل ظاهرة حدائثة فريدة في العالم العربي ساهمت إلى إصلاح النظرة السائدة للنساء اللواتي يروجن فن الموسيقى والغناء. يركز البحث على مقارنة سيرة أم كلثوم بأقلام ذكورية وأنثوية وإلقاء الضوء على المفارقات ليتبين لنا أن أي تغيير لم يكن ليحصل دون إرادة عنصرين أساسيين: نظرة الرجال إلى "السيدة" * أم كلثوم، لقب كنييت به السيدات العفيفات للطبقات الرفيعة المستوى، ولقب لم تكن تحلم به أي مطربة أو فنانة مهما بلغ مقامها وقدر فنائها، ونظرة أم كلثوم لذاتها، وقيمتها الفكرية بكل أبعادها الإنسانية والسياسية والإجتماعية والثقافية. قد يكشف هذا البحث بين سطور خفايا وأسرار الذات الإنسانية لأم كلثوم، وما راكمت من قيم وقهر وثورة وتمرد واستسلام طبع شخصيتها.

لا شك أن أم كلثوم ظاهرة فريدة، هي "صنيعة" الرجال الذين توافقوا على رفع لقبها وحالها ومواطنيتها إلى أعلى الدرجات، في حين رافقت النساء هذه التحولات بوعي اعتبرنه "إيجابيا" في فترة حضنت مفاهيم "تحرر المرأة".

يقارن البحث بين سيرة أم كلثوم لـ"إزابيل صياح" الجزائرية/الفرنسية، الصادر باللغة الفرنسية، منشورات "دنويل" عام ١٩٨٥، أي بعد وفاة أم كلثوم بإثني عشر عاما، وسيرتها للأستاذ "الياس سحاب"، الصادرة عن دار "موسيقى الشرق"، عام ٢٠٠٣، أي بعد وفاتها بما يقارب ثلاثين عاما. وقد تم الإستشهاد بسائر ما كتب عنها ونذكر بالتحديد كتاب الدكتورة نعمات أحمد فؤاد، صديقتها الحميمة "أم كلثوم وعصر من الفن"، كتاب أساس يحوي أهم ما عرف عن سيرتها، إضافة إلى بعض الأفلام الوثائقية والمسلسلات والأفلام (المسلسل الشهير الذي قامت بإخراجه "إنعام محمد علي" من مصر، والفيلم المصري من إخراج "محمد فاضل"، والوثائقي الفرنسي الممول من قبل "وزارة الثقافة الفرنسية") لأهمية وجهات النظر المتنوعة.

كلمة افتتاح للرئيس مبارك، وتمهيد جذاب للفنان عمر الشريف، قسمت بعده "صياح" دراستها إلى ٨ فصول ونهاية. تناول الفصل الأول "عصفور الدلتا"، الإطار التاريخي السوسبيولوجي لطفولة أم كلثوم، لتنتقل إلى "مدام أم كلثوم" أو "سيدتي" في

* السيدة أم كلثوم كانت وماتزال تكنى ب"الست" أم كلثوم من قبل الجميع دون استثناء.

الفصل الثاني، ثم "مدموزيل أم كلثوم" في الفصل الثالث، و"أنشودة الأمل" في الفصل الرابع، أما الفصل الخامس "نجمة الشرق" أو "كوكب الشرق"، مصطلح رافق أم كلثوم في حياتها واعتبر لقبها الفني. "صوت العرب" عنوان الفصل السادس، مدلول للإذاعة العربية التي كانت تبث أمسيات موسيقية مطولة وحية لأم كلثوم. تكرر "صياح" بعناد استعمال عنوان "السيدة" للفصل السابع لتتهي ب "راهبة الإسلام" في الفصل الثامن، فصل تقفله بنهاية "سريالية" مع ملحق خاص يتضمن لائحة ب"ريبرتوار" موسع لأغنياتها مع ترجمة لبعض منها.

سيرة "سحاب" قسمها إلى جزئين. تناول الأول السيرة الشخصية في ٥ فصول: النهضة التاريخية للقرن التاسع عشر لقبه "المسرح يتهياً لظهور أم كلثوم وشعرائها وملحنيها"، ثم "أم كلثوم في الريف"، و"أم كلثوم في القاهرة"، و"مرحلة الإنتشار الكبير: الخمسينات والستينات" إلى "الغروب... والرحيل". وعالج الثاني "السيرة الفنية" في فصلين بعد تمهيد تحليلي لأهمية شراكة أم كلثوم الشخصية في مسار "إبداعها الفني". الفصل الأول عنوانه "خصائص حنجرة أم كلثوم"، أما الثاني فهو تفصيل نقدي لملحنين "السيدة".

في نظرة أولية للتفصيل العام نرى أن التقسيم المتسلسل التاريخي الكلاسيكي قد صبغ السيرتين، فبينما اختار سحاب لغة واضحة مباشرة للعناوين التزمت الأكاديمية الصارمة في سرده التاريخي وفي تحليله لكل المعلومات وخاصة الغير المؤكدة، انتقت صياح عناوينها من الإشارات والرموز المجردة التي تدل على واقع السيرة: العصفورة، السيدة، الأنسة، صوت العرب، النجمة، الراهبة. تشدك في سردها ل ٧٥ عاما من تاريخ مصر الحديث، فترى نفسك تسوح معها داخل البيوت الشعبية المفعمة بالروح الوطنية، تتجول بين ملفات الفقر والقهر إلى ثنايا الفن الراقى، تسلبك بسرياليتها المستقيضة، تتركب قصصا موازية تحمل دلالات المعاناة العامة، الشعب، الفقر، المرأة، التراث، الحرب والكاتبة ذاتها وما يخالجها من انفعالات. عبثا تبحث عن تسلسل قصة ذكرتها، وفجأة في فصل بعيد، تنتبع مجرياتها. قصص من التراث، من الواقع أو من الميثولوجيا الفرعونية، لا بأس، لأنها تصب في المدلول والمقصود. إنك كقارىء في حيرة تتساءل، هل صحيح أن هذا الفحام (بائع أو ناقل الفحم) أغرم بأم كلثوم، وتعذره في عشقه "المرضي" الذي

جعل معشوقته تحدد له تاريخ آخرته. رقد "بجانبها" (تحت النافذة) وهي تحتضر، وهو يتحضر ليتوحد معها في الموت، ليحول هذا القدر إلى لقاء و"حياة أبدية". تبدو هذه القصص المركبة منمنمات شرقية زخرقتها الكاتبة بأسلوبها، فتحتال عليك بهمسة حب من هنا لتقذف بك فجأة إلى قساوة الخيبة، تردك دائما إلى أساطير الخلود الفرعونية، لا يهملها التبرير والتحقيق، فالقالب الفني له متطلباته وأوليائه.

يعتمد سحاب الأسلوب المباشر والقالب الأكاديمي الصارم. لا يتناول أي مفهوم دون التوسع في البراهين والمراجع والتحليلات. يتقدم خطوة خطوة في الحكاية متوسعا في النقاط المفصلية، مجتهدا مطورا مجددا ومثيرا للعديد من النقاط، يحسم بعضها منها، ويطلب بدراسة وتدقيق البعض الآخر، كما يأسف ويتحسر على تدني الفن في صناعة مطربات ومطربين ما بعد الحقبة الكلتومية. يجعلك في حنين لزمان منفتح على الحياة والرقي الفني، مكسب لم تستطع المطربات العصريات الحفاظ عليه.

خمس نقاط نعتبرها جديرة بالدراسة المقارنة لما شكلت من عناصر تمايز أو تقارب بين السيرتين: أهمية دور والدة أم كلثوم (الوعي النسوي)، قيم الموروث، تمرد أم كلثوم، الإلتزام المواطني والنضال العروبي، الأنوثة والذكورة لنهي بتمايز إبداع السيدة أم كلثوم...

١- الوعي "النسوي" في شخصية والدة أم كلثوم

شددت السيرتين على أهمية دور والدة أم كلثوم من حيث المشاركة في قرار تربيتها ونشأتها ومصيرها. هي التي أصرت على إرسالها للكتاب ولو أن هذه العادة لم تكن متوفرة للفلاحات، هي التي ألحت على التعليم أمام تلكؤ الأب (نظرا للعوائق المادية، وربما خشية من كلام أهل البلدة). وحيث إن صياح تضع الحدث في إطار درامي واصفة خشية الأب من كلام الناس، الناس الذين نصحوه بعدم تعليم أم كلثوم: "يرتجف الرجل عندما تتساوى المرأة معه" (١)، لكنها لا تضيع فرصة تردد فيها وتكرر أهمية "فاطمة" في تعليم ورسم مستقبل ابنتها، لتستنتج أنها كانت العنصر الأهم في توجيه مصير أم كلثوم وفي دعم طموحها واكتسابها للمعارف. لم تحلل الكاتبة هذه الظاهرة المتطورة في شخصية الأم، بل تراها مناسبة لرتاء وضع المرأة في هذا الشرق البائس. مما يدفعنا إلى السؤال التالي: في تلك الايام (١٩١٠) من طفولة أم كلثوم المبكرة، هل كانت والدتها قد سمعت بدعوات تعليم المرأة التي "همس" بها بعض من تعلم في الغرب؟ أم كانت محاولة منها في تقليد بنات العائلات اللواتي كن يأخذن برنامجا تربويا يتخطى

الكتابة والقراءة إلى مبادئ الرسم والعزف الموسيقي (البيانو خاصة) للتشبه بالغرب المستعمر كمثل متطور...

يشير سحاب إلى أن فاطمة باعت صيغتها لعلاج أم كلثوم عندما أصيبت بعينيها، مستغريا هذا التصرف في زمن كانت فيه الفتيات مهملات، لا يحظين بأهمية كالفتيان. لكنه يسارع ليشير تلقائيا إلى "أهمية دور الأب" في حياتها إلى جانب الأم، واضعا العبارة بين قوسين. كما يوضح أن مشكلة العيون لدى أم كلثوم رافقتها طيلة الحياة مما حملها إلى استعمال النظارات السوداء بشكل مستمر. وكأن "صياح" لا تكثرث إلى هذه المعلومة فتشير بإعجاب إلى بريق العيون السوداء مرارا.

وبرصانته التحليلية، يعاود سحاب إلى تحليل دور الأم في تعليم البنات متسائلا عن سبب هذا الاصرار السابق لعصره: "أهو تضامن نسوي مضمّر في مواجهة تحيز الأب للإبن؟". في السياق نفسه، نرى اهتمام الدكتورة نعمات ف. أحمد يميل إلى الرومنسية، فتتصرف إلى وصف الطبيعة في الريف، تغريد العصافير وألوان الخضرة التي تلهم حواس الطفلة وهي في طريقها إلى الكتاب برفقة أخيها.

كما يرى سحاب أن الأم كانت وراء اصطحاب الوالد أم كلثوم في جلساته الإنشادية، لسببين وجيهين: مساعدته في الإنشاد من جهة وتأمين الكسب المادي من جهة أخرى. وينقل عن "أم كلثوم" اعترافها بدور والدتها كعامل أساسي في نجاحها بالدرجة الأولى ومن ثم يأتي دورها الشخصي الذي أدى بها إلى تحويل أخيها ووالدها إلى "ظل لها" كما تقول، وإلى تحديها الفقر والفقر والمجتمع الريفي بالعلم والمعرفة، وإلى دور المنشدين والملحنين الذين صقلوا شخصيتها الفنية (٢). لكنه دائما يعيد ويضيف بين قوسين: "وحسن تصرف والدها"...

من الواضح أن دور الوالدة فاطمة كان أيضا غالبا في مسلسل السيدة إنعام محمد علي. هذه المرأة التي تغلبت على وضعها المتدني بالإصرار على إعطاء حقوق غير مشروع بها (اجتماعيا) إلى الإبنة، لا شك أنها أثرت إيجابيا على وعيها كما أكدت أم كلثوم التي اتخذتها حليفة، تلجأ إليها في المفاصل الصعبة، وفي كل قرار مصيري. نذكر على سبيل المثال ذهاب الوالد لاستشارة فاطمة يوم ارتأت أم كلثوم "السفور" واستبدال ملابسها الذكورية التي كانت تظهر بها في الحفلات بملابس نسائية، فكتبت لها حينئذ رسالة تستجد بها لإقناع الوالد. (٣)

توافق الباحثان على أهمية مبادرات الوالدة لرسم الدور الكبير لأم كلثوم، وبينما رأت صياح في هذه النقطة مادة دسمة تتفاخر بها من زاوية نظرها كامرأة عربية/غربية مدافعة عن حقوق

النساء بشكل فاضح، وتسخر بتركيباتها السريالية من التقاليد الصارمة عن مفهوم الرجولة والذكورة، كان "سحاب" يضيف فوراً إلى جانب أهمية دور الوالدة، "أهمية دور الوالد" أيضاً، حتى ولو أن إطار البحث لم يستدع ذلك، فكان يضع كلماته دائماً بين قوسين وكأنها فرضية فعلية وكأنها تذكير بأهمية النظام الأبوي في هذه المرحلة. فبدأ هذا التذكير "المتردد" وكأنه نوعاً من "شوفينية ذكورية"، وربما يعني هو بوصف واقع هذه الحقبة الزمنية، وواقع الريف المصري المتدين والمحافظ ...

٢ - قيم الموروث

ينقل سحاب عن الد. نعمات احمد ولادة المطربة في ليلة القدر التي صادفت في هذه السنة مع نهاية العام الميلادي. فكانت الأم تحتفل سنوياً في هذه الذكرى. حقق الدكتور فكتور سحاب في هذه المصادفة ليتأكد من سنة الولادة، ورجح أن يكون العام ١٩٠٢م قد شهد ولادتها. وبحرصه الدائم في السيرة على ذكر عبد الوهاب، يؤكد الياس سحاب: "كلاهما حاول إخفاء معالم تاريخ ولادته الفعلية"، ويلتزم الحياد العقلاني حين يفاضل القول بأن ولادة أم كلثوم تزامنت مع ولادة القرن العشرين (٤).

أما في اختيار اسم أم كلثوم، فهناك دلالات دينية لا بد من ذكرها لتأكيد أهمية العامل الديني على أم كلثوم وبيئتها. تروي الد. نعمات (دون تأكيد المصدر يقول سحاب، لذلك يتحفظ على الرواية) عن رؤية ظهرت للوالد بعد صلاة التجهد: أم كلثوم ابنة الرسول (الصلاة عليه)، كلها نور بنور، تقدمت منه وأعطته جوهرة وطلبت منه الحفاظ عليها". في تفسير المنام، قرر أن يلقب المولودة بأم كلثوم. أما المدلول الروحاني لهذا الرزق الآتي من السماء، فقد اعتبرت الطفلة حامل للبركات والآمال، وما لولادتها في ليلة القدر إلا تأكيد على هذا المدلول. إذ إن ليلة القدر "خير من ألف شهر. تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم ...". وكان الوالدين يستبشران الخير ويتنبآن للمولودة بإعجاز ما... قد يفسر ذلك أيضاً تساهل الأهل مع الإبنة في مواقف متعددة فيما بعد.

يتوافق الكاتبان على أن بيئة أم كلثوم محافظة، فالوالد مؤذن ومنشد ديني وحافظ للإشاد الديني وهو يهيئ ابنه خالد ليخلفه. فوجئ الوالد بسرعة تعلم ابنته أمام بطنه، فكانت تردد بمفردها ودون خطأ الإبتهالات الدينية، وبدل أن ينهرها (كما كانت تتوقع)، دعاها لمشاركته ذات مساء إلى حفلة "شيخ البلد" وكانت في الخامسة من العمر (٥). لم يكتف الشيخ ابراهيم بتقديم ابنته،

فبعد النجاح الذي لاقته في أمسيته الأولى، خاف عليها من حسد الأشرار، وأوصى لها على حجاب يحفظها وأحاطها بالقراءات والآيات الكريمة.

لم تعر صياح أهمية إلى ما ورد، علما أنها ركزت مرارا وتكرارا على الإيمان القوي لأم كلثوم: كانت تقرأ القرآن قبل الحفلات، وفي كل مشدة، وتصلي لتشكر الله بعد نهاية الحفلات. ورأت في ذلك الفرق الهام بين المغنيات الغربيات أمثال كالاس و بياف وبين أم كلثوم. هن يذهبن في آخر الحفلة ليتناولن كأسا أو شرابا مع الأصدقاء، أما هي فتشكر الله الذي وهبها الصوت والطاقة لتسعد الآخرين: "أم كلثوم هي قبل كل شيء مؤمنة، فلاحه ومصرية... تجيد تلاوة القرآن ترتيبا وتجويدا" (٦) وفقا لتعاليم والدها.

ومن الطبيعي أن الوالد كان يخشى الاصطدام بالتقاليد، وكان لا بد له أن يتحاشى كلام الناس وان يجتهد من أجل إخفاء المعالم الأنثوية لابنته، فارتأت أن تنتكر في زي غلام وأن يخفى الشعر تحت العقال والكوفية... وظل الوضع على هذا المنوال حتى بلغت عمرا متقدما. وحين قررت استبدال مظهرها الذكوري في مرحلة لاحقة، حزن الوالد لهذه المبادرة "التحررية" من وجهة نظره، وكان يحاوطها بشكل دائم مع أخيها. فذهب إلى البلدة غاضبا، حاملا الرسالة إلى والدتها تطلب فيها المؤازرة.

أما في مجال الغناء الدنيوي غير الديني الذي رغبت السيدة في أدائه بناء لتوجيهات أساتذتها، لم تأت موافقة الوالد لولا تدخل الشيخ عبد العلا محمد الذي اقنع الوالد أن الغناء لا يزرع عنم يزاوله الوقار والاحترام الذي يسبغه عليه الإنشاد الديني، فغناء القصائد له هيئته واحترامه أيضا (٧). ومن جهتها اعترفت أم كلثوم أنها كانت تتصرف بجدية دائما ربما لوجود أبيها وأخيها بجوارها باستمرار. وهنا لا بد من الإشارة إلى واقعة الملحن النجدي الذي "انسحب من بلاط أم كلثوم" لأنه لم يفصل بين العلاقة الفنية والشخصية، وخط بين العلاقة العملية والشخصية (٨).

يتكلم سحاب في مواقع أخرى عن مطلع قصيدة "الخلاعة والدلاعة مذهبي"، أغنية اعتبرت "ذلة قدم"، ربما الوحيدة في حياتها الفنية. مما دفع الشاعر احمد رامي للتدخل وتعديل المطلع "المبتذل" ليصبح "الخفاقة واللطافة مذهبي". يبدو مما سبق أن فريق عمل أم كلثوم كان أيضا حريصا كل الحرص وملتزمًا على تجنبها أي انزلاق نحو الفن الهابط، إضافة طبعا إلى إرادتها القوية والتزامها الأخلاقي. وتقول صياح إن أم كلثوم كانت تسخر بخفة دمها من حركات مغنيات ومطربات ونجمات علب الليل، وتحققر الدور السياسي اللواتي كن يقمن به، وتنتقد فخرهن بالتبجح مثلا باجتماع الوزراء في منزلهن. كما تذكر باحتقار ويتفاخر السلطانة (منيرة المهديّة)

التي كانت تتباهى كيف "كانت تبلل رجليها بالنيبذ، ثم...": "أحب أن أتمايز عن الدلوعة (كوكيت)، ذلك لا يضر بي"، تقولها أم كلثوم بوقار صبح شخصيتها منذ الطفولة (٩). أما "سحاب" فقد اختار واقعة مفادها أن أم كلثوم بكت في حفل دعته إليه "المهدية"، بكت على فشل هذه الأخيرة بدلا من الشماتة بها ليشهد لها برفاعة الأخلاق ومبادئ الخير والترفع.

في هذا السياق نؤكد على أهمية رصانة المطربة بحادثتين ذات دلالة. الأولى ذكرتها صياح تتعلق باقتحام أحد المصورين جلسة خلوتها مع صديقتها على شط البحر بعيدا عن الجميع وعن الوالد خصوصا. علم الوالد بالمصور الذي التقط لها صورة وغضب. ذهبت أم كلثوم للمصور تفاوضه لاسترجاع الفيلم. فنجحت في اقناعه بحجة "أنها فلاحه ولها قيمها" ولا يجوز اقتحام حرمتها وهي بلباس خفيف خاصة أن هدفها هو الاستراحة وليس التمثيل. فرد لها الفيلم واعتذر منها. في موقع آخر تخبرنا "صياح" عن غضب الأب والابن والسيدة عندما ظهرت لها صورة في إحدى المجلات لأن "شرف أم كلثوم كان أهم من كل شهرة" (١٠)...

الحادثة الأخرى ذكرها سحاب، وهي حملة التشهير التي تعرضت لها في مجلة المسرح ومن صاحبها الناقد المسرحي محمد حلمي، ويقال أنها كانت حملة مغرضة ورائها منيرة المهديّة. نشرت المجلة افتراء أن أم كلثوم (الشابة الريفية المحافظة) رفعت دعوة في بلدتها على شاب غرر بها ورفض أن يتزوجها. كالعادة غضب الوالد وقرر العودة للقرية وللاّينشاد الديني دون غيره. لكن الشيخ الأزهرى المستتير الذي تعلم في أوروبا مصطفى عبد الرازق رد لها اعتبارها، وكتب مقالات في جريدة السياسة (دون توقيع اسمه لمركزه الديني الرفيع في الأزهر) دفاعا عنها كما قدم لها الرعاية المادية في البدء والمعنوية وصد كل حملات المس بشرفها، وحصن وضعها، وشارك في إقناع والدها بأن تظل في القاهرة وتتعاطى الفن الراقي الديني والدينيوي. يضيف سحاب أن أم كلثوم اختارت دائما أن تكون على علاقة متينة وعلى مقربة من الشيخ الأزهرى، ليس للحاجة أوللرعاية، فهي "علاقة مرید ثقافي وحضاري يجمع بين الجذور الراسخة والاطلالة على اسباب التقدم الحضاري الاوروبي" (١١). بالتأكيد، كان الوالد مطمئنا لدعم وحماية رجل دين على وزن "عبد الرازق" لأنه أزهرى، ولأنه ريفي محافظ من قرية مجاورة، لذلك قررت (ووالدها) العيش بالقرب منه. تماما كما تم اختيار الشيخ أبو العلا محمد ليكون الملحن الأساسي لأم كلثوم، إذ كان يشهد له بمبادئه الأخلاقية المحافظة.

في السينما، اشترطت أم كلثوم "لا قبلات"، غنت الحب الإلهي، الحب المنزه. فعليا كانت السينما خيارا قصيرا (٦ أفلام فقط)، امتهنتها بعد وفاة الوالد، وكان الفيلم عبارة عن مجموعة من الأغنيات، أما المضمون فعالج حياة شخصيات نسائية تاريخية أو ريفية... اعتمدت أم كلثوم

الفن كرسالة هادفة، وغالبا ما كانت تستشهد بقصة "جميلة"، مغنية من القرون الوسطى التي انتهت بها المطاف إلى السلام الذاتي في الإنشاد الديني. قصة كان يكررها عليها والدها، فتعلمت أن للفن بعدا وهدفا إنسانيا. وكانت في تواضعها ترفض أن يتصرف الناس معها كنجمة.

يغوص سحاب في تفاصيل عن الكسب المادي المرتفع بين حفلة وأخرى، وعن تأريخ دقيق لحفلاتها، وعن تمرس الأب والأخ في توقيع العقود مسبقا بعدما تورطوا في خسارات سابقة، ويروي حتى كيف أن الوالد "بعد اليسر"، أرسل أولاده للمدينة لالتقاط "صورة" لهما. كلها تفاصيل لم تثر اهتمام الصياح التي فضلت الإفراط في سرد عن مساهمات أم كلثوم الخيرية خاصة في بلدتها.

يعتقد سحاب أن تراث الإنشاد الديني شكل الحافظة التاريخية للفلسفة الجمالية الموسيقية العربية، ويقول إن حب أساتذتها لها (الشاعر أحمد رامي والملحنين زكريا احمد والقصبجي) وثقة أم كلثوم بهم مكنهم من جمع الجهود لصناعة نموذج جديد من النجوم، ينتمي إلى التراث الأصيل، القابل للتحديث والإبداع السامي والرفيع، من كنف الإنشاد الديني بعيدا عن مغنى "الطقوقات" في علب الليل.

وكانت أم كلثوم تختار اللون الأخضر لأنه اللون الرسولي (وفقا للصياح). وفي الفصل الأخير، لقبته الصياح ب"راهبة الإسلام" لعمق إيمانها ومبادئها الأخلاقية والدينية. أما والدها، فقد اشترط أن تكنى أم كلثوم "بالسيدة". والسيدة لقب يضع صاحبه في مرتبة عليا، ألم يكتب على لوحة في أحد الحفلات "ممنوع الاقتراب". لقد حصنها وحاول الحفاظ عليها ولو على حساب شخصها ونوعها الجنسي، وعندما قالوا له أن لقب السيدة هو للمتأهلات، استبدل الاسم "بالآنسة".

خلاصة القول إنه بينما اهتمت "صياح" بناحية الإيمان العميق لأم كلثوم ورموز التقى والصلاح وكرم العطاء، اهتم "سحاب" بالأعراف الإجتماعية، والقيم الأزهرية والحفاظ على التقاليد الأبوية التي هي أساسات المجتمعات العربية، إضافة إلى "روحانية الإبداع الفني" وتحولات الإنشاد الديني نحو فن راق دنيوي إذا جاز هذا التعبير...

٣- التمرد والبحث عن الذات

تشهد السيرتان أن أم كلثوم تتمتع بقوة الشخصية والحضور. ومما لا شك فيه أن مسيرتها الفنية التي بدأت بالظهور منذ الصغر أمام جماهير مختلفة ومتعددة من الريف والمدن قد أمدتها بالزخم

والدفع، وعززت وعيها بقدراتها من خلال صوتها أولاً ومن خلال المضامين الفنية الراقية التي تابرت عليها.

يقول سحاب إنها منذ يافع سنها، رفضت غناء الكلمات التي لا تفهماها: "كي أعطي المعنى حقه في الغناء". كانت تضع شحنة من إحساسها في كل كلمة. مع الوقت (في العشرين من عمرها)، أصبحت شريكة في القرار، وفي النقاشات مع الوالد والشيخ أبي العلا محمد الذي أتم تعليمها القواعد الموسيقية، والشاعر أحمد رامي، والقصبي. وفيما بعد، بدأت تشور على الشاعر الكبير وتطالبه في انتهاج أسلوب يكون أقرب وأسهل للناس، وتتلذذ في مهاجمته، واثقة من تسامحه معها، مما لا شك فيه أن لباسها الذكوري وخفة دمها قد سهلا لها هذا التصرف الجريء...

في مرحلة النضج الثقافي والفني، بدأت تتصرف كالمعلم، تختار الأشعار، تغير الكلمات، وتتسلط لتكون المهمة الأولى للشاعر. ويقول سحاب أن طموحاتها كانت كبيرة، فتعلمت اللغات والفرنسي بشكل خاص، ونقر العود. هذا التسلح بالمعرفة مكنها من أن تشارك وتبادر في اتخاذ قرارات تتعلق بمصيرها، نستشهد ب"سحاب": "تتخذ الخطوة الحاسمة في حياتها بقرار الانتقال الى القاهرة"، كما ثمن مدافعة أم كلثوم (٢١ عاما) أمام أبيها تشكو منه مظهرها الذكوري بعد أن زارتها سيدة واعتقدت أنها الخادمة. (١٢)

من المؤكد أن أم كلثوم لم تعد تتمكن من الظهور بشكلها الريفى التراثي الذكوري حاجبة هويتها كإمرأة عصرية تساهم في بناء المجتمع الحديث الذي كان في محور اهتمامات النهضة. فهي محاطة بالعديد من المثقفين وأصحاب الرأي الذين درسوا في باريس. يذكر سحاب الدكتور علي عبد الرزاق، هذا الأزهرى المتمرد على سوء فهم الإسلام، وصاحب الكتاب الذي أثار وما زال يثير النقاشات حول "الإسلام وأصول الحكم"، وهو شقيق الدكتور مصطفى عبد الرزاق، راعي وحاضن موهبة أم كلثوم. أليست هي من غنى "سعد لم يم"، وكانت كسائر المصريين ترى فيه الخلاص والمستقبل، وكانت صديقتها صفية (أم المصريين وزوجة سعد زغلول) تأخذها دائماً بإيمانها القومي. في هذا الجو الحيوي رأت "صياح" مناسبة تجعل من أم كلثوم مناضلة نادته بحق الإقتراع للمرأة، وتمردت وتأسفت أن "صفية" لن تستطيع إتمام مسيرة "زغلول" بعد وفاته لأنها "امرأة"... أما في شأن تغيير لباسها، ترى "صياح" أنها صاحبة القرار رغم رفض الوالد وغضبه. وتختار اللون الأخضر، اللون الرسولي (لتطمئن أولياءها حتما ولرمزية إيمانها)، وتضع غطاء أسود على الرأس من خجلها في السفور أمام والدها وأخيها وحتى أمام جمهورها: "في هذا المساء، أخذت أم كلثوم بالمنديل في يدها، لتخفيف حدة التوتر (من الظهور بشكل امرأة، هوية لم تألفها من قبل ولم تعها...)" . حينها بدأت قصة "المحرمة" التي كثرت عنها الأقاويل ولم

يكثر إليها "سحاب" في سيرته علما أنها مثلت التفصيل الأساسي لمغلف كتابه بطبعته الحالية...

ما هي الدلالات التي يشير إليها هذا المنديل؟ أليس المنديل رمزا للأوثنة، الأوثنة التي قررت أن تكشف قناعها الذكوري، إنه جاذب، شفاف، يخفي ما تريد بقدر ما يكشف ما لا تريد. هو الرمز الذي يلوح فيه الحبيب للمحبوب، عند اللقاء أو إبان الفراق، منديل شفاف يتراءى منه الجمال المحبوب. تكلمت الصحافة عن المنديل، وكثرت التساؤلات حوله، واعتبرته هي علما (كلثم يعني علم)، وكانها ترفع العلم وهي تتشد. بات المنديل طرازا خاصا للسيدة، ابتدعته لنفسها، ربما لتخفيف حدة التوتر، وربما لشد نظر المشاهد وجذبه نحو حركة القماش الشفاف المتطاير، إنه فقط الحجاب الذي كان على الرأس وقذفت به بيدها لتكون هي. ترى صياح أن "التحديث" الذي حصل هذا المساء كان رائعا، طبع في ذهن المطربة الرضى عن الشكل المقبول والمحترم والمحتشم الذي حاكته لنفسها، فكانت على طبيعتها دون "ماكياج"... وإذا كانت الأخريات تقصرن الثياب، فهي سوف تحجب أكثر ما يمكن... لم يعد الأب يعترض.... كان فقط فخورا بابنته". وتضيف "صياح بنبرتها النسوية": "هي أول امرأة تدير عائلة موسيقية". ولا شك أن الجميع يعترف بمسؤوليتها في إصلاح الموسيقى، وبقدرتها على جذب الجمهور دائما وبشكل مذهل... " (١٣).

وكانت لأم كلثوم ومضات من التمرد منذ حداثة سنها، هي عبارة عن تصرف بريء لم يكن مألوفاً في زمنها. في أول مرة رأت فيها النيل، ألحت على القيام بنزهة في "الفلوكة"، وأمام جمال المياه المتقلبة والطبيعة الجميلة استرسلت بالغناء فأدهشت الحضور ويحكى أن القبطان "الريس" ترك المقود... هذه الواقعة من صياح تقابلها أخرى في فرحتها عن اكتشاف القطر في بداية الانتشار الفني (١٤)، فحين غنت، أنعشت طريق المسافرين (في المسلسل)... ربما كانت أم كلثوم من أول النساء/الشابات ذات المبادرات التحررية، خاصة أن شكلها الريفي المحافظ وشكل والدها الشيخ ابراهيم الوقور وأخيها لا يوحيان بتصرف جريء/بريء كهذا.

في سياق آخر تمردت أم كلثوم أمام حملة التشهير التي طالت من سمعتها ورفضت الإستسلام للمحرضين، يقول سحاب (١٥): "هي من لعب الدور الأهم في الصمود أمام التشهير". وحتى في فيلم "سلامة" الذي هاجمه النقاد، صرحت أن "هذا النقد هو أهم دعاية لها". لا شك أن المجموعة التي صنعت أم كلثوم كانت سابقة لعصرها. للمرة الأولى في تاريخ الأمة، يعمل الرجال على ابتداء نموذج نسائي في حقل الغناء لا يكون ترويجا استهلاكيا مبتذلا. ولو

كان القصد منه كذلك، فالإختيار لا يفي بالصفات المطلوبة لمطربات علب الليل، رغم كونها تتمتع بموهبة نادرة وإحساس رفيع قلما يجتمعان في شخصية واحدة. هذه المجموعة الذكورية محورها شيوخ من الأزهر وملحنين تراثيين وملحن محدث كالقصبجي وشعراء وضعوا هدفا ساميا في توجيه السيدة، فلم تخذلهم واستجابت لطموحاتهم والتزمت قيمهم المجتمعية. ولولا هذا التجانس من الطرفين لما كانت "ظاهرة أم كلثوم" تبصر الضوء، ولظلت النظرة العامة للمطربات مقترنة بأحكام مسبقة لم توفر أم كلثوم نفسها في بادىء الأمر، طبعا قبل أن تثبت الأيام التزامها لقيم الريف المصري الذي نشأت عليه. لقد كان طموح أبي العلا محمد، أستاذ الغناء الأول، أن يجعل منها خليفة له في غناء "الدور"، وهو أسلوب غنائي مخصص للرجال. لم يكتثر لكونها امرأة، فالأهم أنها الأنسب لهذا الأداء، ولم يرى أكفاً منها. ألم يكن هذا التصرف بحد ذاته ثوروا في هذه الآونة من قبل الرجال؟ هذه الإرادة الذكورية كانت الخطوة الأولى لانتقال السيدة من الإنشاد الديني إلى الغناء الدنيوي العاطفي. نقلة ساهمت في الإصرار عليها رغم خشية الوالد من الإنزلاق في مناهات الخلاعة والإنهيار الأخلاقي، فصمدت لتحدد معالم إبداعها فيما بعد. ولكن حتى ولو كان مصدر القرار ذكوري، إلا أنها كانت على يقين بمهمتها لتثبت نفسها "سيدة الغناء" في القاهرة، وسيدة "الغناء النسائي العربي" بما تمثل من تجديد للموسيقى (خاصة أمام منافسيها). أليست من يؤدي الدور، والطقطوقة والشعر. فلم نعد تستغرب قرارها في المشاركة في جنازة الشيخ أبي العلا (١٦)، رغم معارضة الوالد والأخ. وفي هذا التصرف خرق لكل التقاليد، خرق لم تجتسر أن تقوم به إلا السيدة أم كلثوم.

في فيلم "سلامة"، وكانت البطولة لها، سجلت تلاوة من القرآن الكريم (١٧). هل اختارت "سورة ابراهيم" إكراما لوالدها المتوفي، لا شك أن هذا التمرد وهذا الاقتحام لعالم محتكر للرجال لم يكن معقولا أو ربما "مسموحا" به لغير أم كلثوم، فهي ابنة الشيخ ابراهيم، وهي المحافظة القروية المصرية، وهي المتحررة مع الإحتفاظ بقيم التراث والحائزة على رضى الأزهر، والمناضلة لقيم النهضة العربية. حادثة فريدة في العالم العربي، لم تسجل تلاوة قرآنية لامرأة على اسطوانة لا قبل أم كلثوم ولا بعدها... طبعا لم تؤخذ هذه الحادثة بأبعادها التمردية لدى أي من الباحثين، حتى أن الصياح لم تذكرها قط علما أنها محور هام في قضايا الحركة النسائية التي ما زالت تفتقد التشريعات والفتايات والمجتهادات في أمور الدين والدنيا...

نضجت هذه النفحة التحررية النسوية مع التعاطي بقضايا الشأن العام، ومع صعود الفكر الأيديولوجي العربي. وربما كردة اعتبار لها بعد خيبة أملها في الزواج من خال الملك (في بدء حياتها الفنية)، لكن صياح تذكر عنها: "ناصر حرر المرأة". وتراها تشتترط على عبد الوهاب، في

مشروع فيلم مشترك يطمح لتنفيذه معها، أن تعطى الفرصة للنساء الصاعدات تكريماً لدور المرأة المصرية. فتنضم الأوركسترا عناصر نسائية، وتكون بطلة الفيلم امرأة (علماً ان السيناريو كان محبوباً حول قصة البطل "الذكر" (١٨). مما أفضل المشروع حتماً، ربما لأنها ترفض المنافسة مع عبد الوهاب، وترفض حتى أن تكون على قدم المساواة، اعتادت أن تتحدى من أجل التفوق دائماً. لم يوضح "سحاب" الأسباب التي أفشلت هذا التعاون المشترك للياقته الأنيقة، ولكن من الواضح أن المنافسة بين النجمين كانت شرسة. وحين لجأ عبد الوهاب إلى السينما ونجح فيها، توجهت السيدة لتتربع على عرش الراديو في حفلات اسبوعية ذات أبعاد نضالية قومية. يقول "سحاب" إنها مرحلة "الأسئدة"، وتقول "صياح عنها" تزوجت الفن". انتهى بها الأمر لتكون صاحبة القرار الأول والأخير في اختيار ما تغنيه من ألحان، إلى حد التدخل المباشر في اللحن، والشعر والإخراج... تلك هي الصيغة الفنية الكلتومية من الأربعينات وحتى السبعينات.

متمردة كانت تلك المرأة التي ما إن غضبت من استقلالية أحد ملحنها حتى تقطع التعامل معه مباشرة. متمردة يوم أصرت على خوض انتخابات نقابة الفنانين وربحتها لتكون أول امرأة على رأس النقابة... متمردة يوم أسست جمعية النساء وقررت القيام بجولات دولية وعربية لدعم المجهود الحربي، لتكون المرأة والفنانة الأولى في العالم العربي التي تحول معنى المواطنة (النسائية) إلى ممارسة وفعل. وفي جولاتها على المناطق المصرية والبلاد المحيطة، صرحت السيدة مراراً على ضرورة حق الاقتراع للسيدات، ورفض ختان المرأة، ورفع سن الزواج. كما نوهت أنها تقدر وتحترم عطاء النساء: "أعذر النساء دائماً لشجاعتهم الدائمة في كل المناسبات". وفي خطابها أمام التونسيات، تقول: "أخواتي اكشفوا الرأس، نحن القوة المنتجة في المجتمع، يمكننا أن نحفظ برأسنا عالياً ودون حجاب"، إلى أي مدى أثرت على السيدات؟ تجاوب "صياح": "فسفرت السيدات... (١٩).

بناء على رأي الباحثين، يمكننا الإستنتاج أن قرار تحديد هويتها ونوعها الاجتماعي الضائع من خلال اختيار اللباس الذي يعكس شخصيتها هو بمثابة الانتفاضة الأولى للسيدة، أما ما سبق من قرارات على رغم الاهتمام الذي حظيت به من قبل الباحثين فمرده الأول لحصتها "الجزئية" في المشاركة بقرار مصيرها واستعدادها للالتزام بهذا القرار. يذهب سحاب بمنطقة الواقعي إلى تحجيم قرارات أم كلثوم فيما يخص انتقالها للقاهرة، وفي البت بشؤون الغناء العاطفي نظراً لحدائث سنها وتجربتها، حيث كان القرار الفعلي للقصبي، وللشاعر رامي في تثبيت موقعها وردعها عن غناء كلمات لشعر ساقط حفاظاً على رقي المستوى، وللشيخ الدكتور عبد الرزاق. فكانت اللقاءات الاسبوعية لصقل ثقافتها الشعرية التي حولتها للغناء

العاطفي: "الأثر الرئيسي الحاسم في توجيه حياة أم كلثوم في تلك المرحلة كان بلا شك منوطا بأولئك الرجال الثلاثة". (٢٠)

أما صياح فتعزي تمردها لوعي نسوي ولمحاولة في إثبات الذات وتحقيق الشخصية والتحرر من ثقل الحضارة الأبوية خاصة أنها كانت دائما تستأنس بخطى والدتها، بينما يركز سحاب على نضج ثقافتها الموسيقية والشعرية، ويعزي ذلك إلى ذكائها وطموحها وقدراتها الذاتية. لا شك أنها نموذج نسائي يحمل في طياته القدرات والإمكانات للتطور والتقدم والتحرر والتمرد وذلك بالتجانس مع فكر المرحلة الحيوية الحضارية التي عايشتها.

٤ - التزام المواطنة ونضال العروبية

من المعلوم أن عصور النهضة الموسيقية حفلت بظاهرة رعاة الفن والفنانين التي لم تقتصر على بعض الحكام، بل تعدتهم إلى هواة من علية القوم. بينما تتكلم صياح عن خوف أم كلثوم من "الشارع"، وتسوح بسرالييتها مع "المكفوف"، يتحسس طريقه بعصاه وينادي: "الرجال الكبار ينتمون للشارع ... وبأخذون بارادته. سيرهم وقدرهم يقوم بإخراجهما الشارع. هو الأقوى، ... سوف يلعنهم الشارع أو يجعل منهم أبطالا". فالسيدة ليست بعيدة عن معاناة الشارع، وهي لا تطيق تكريم الملوك. غنت للملك فؤاد "أخلص له أكان مخلصا أم لا ... لا أستطيع ان افعل شيئا". وغنت قبل وفاته قصيدة شوقي الذي كرم بها ولي العهد فاروق: "الملك بين يديك"، لكنها وفقا ل"صياح": "غنت للملك فاروق وهي تحلم بالتحريم" (٢١). ويستطرد سحاب: أنه "رغم قلة أغنياتها للفراروق، لكنها حظيت بلقب "صاحبة العصمة". هذا اللقب الذي تكنى به سيدات نوات الشأن العائلي. أما أم كلثوم، فكانت تريد أن تكرم جمهورها، الشارع الأصيل، فنقول: "أمسياتي كأنها اجتماعات سياسية... أنشد حالة جمهوري (الحرب)" (٢١). وللرقابة التي حاولت حذف بعض العبارات في أغنية "ولد الهادي"، رفضت الإنصياح مبررة أنها قصيدة دينية في مدح الرسول ومنعها قد يثير الحساسيات الدينية لدى الجماهير، فألغي قرار المنع. وظل المعنى ملتبسا، محرضا، مبطنا خاصة في الإرتجال المتكرر ل "وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا". وبقيت القصيدة تثير انفعال الجماهير العربية التي تعيش حالة مماثلة لمصر. وفي تحليل سحاب أن أغنيات الزمن "الملكي" كانت للوطن لا للسلطة فيه. لذا تفاعلت الجماهير العربية مع أغان تجاوزت الحدود الضيقة نحو "المساحة القومية المشتركة" (٢٢). وعلى الرغم من

ما سبق، فقد قلدها الملك وسام "نجمة النيل" الملكي، الذي اعطي لامرأة للمرة الأولى في تاريخ مصر، ولم تعد تتخلى عنه حتى الثورة.

أما عن سحاب، فإن خال الملك أغرم بأم كلثوم، لكن العائلة الملكية رفضت ارتباطه بها كونها من الشعب ولا تنتمي لنسب شريف أو نبيل. مما سبب لها ألما وإهانة لكرامتها وتمردا لاعتبارها أنها وصلت لدرجة الرفعة من خلال فنها.

خلال الحرب دعت أم كلثوم المحاربين لدى رجوعهم لتكريمهم وقد سمعت أن صوتها كان يجمعهم في ساعات الشدة. فزارتهم والتقت القائد جمال عبد الناصر. وتعقد صياح حبكة رومنسية تمهد للعلاقة التي جمعت فيما بعد ما بين السيدة والرئيس بعد الثورة. وتتكلم عن تفاصيل حياة أم كلثوم في أيام الثورة. (٢٣)

"هل بدأت من الآن التشجيع على الثورة؟" بهذه الكلمات استهل الصحافي مصطفى أمين نقده للثورة في فيلم وثائقي، لأن السيدة أم كلثوم توسطته لمعالجة قضية منع أغنياتها في الإذاعة مع قيادة الثورة. لكن ردة فعل الرئيس ناصر كانت رائعة، إذ اتصل بها لتصليح الأمر. وعندما قيل له إنها غنت أيام النظام الملكي، جاء جوابه التاريخي، "الشمس والنيل والاهرام كانوا أيام الملكية، هل يجب لأجل ذلك إلغاءهم...". إن لأم كلثوم من الأهمية أن المنع لو استمر، لبدأ التشجيع على "ناصر" بذاته. وهنا يشرح "سحاب" مطولا أن علاقتها بالملكية تدرجت من الأسفل، أما علاقتها بالثورة فبدأت من فوق، إذ إن جمهور الثورة هو جمهورها العريض. عبرت "صياح" عن ذلك بالقول "إن الزعيمة غنت لعبد الناصر، غنت للثورة والهوية العربية"، إنها بامتياز "صوت العرب": "لن اصبح أما لعائلة، مسيرتي هي العمل من أجل وطني وسوف يساعدني الأصدقاء في إتمام المسيرة". اعتقدت أم كلثوم أن العمل في سبيل القضية هو صلاة بحد ذاته: "أنا مغنية تحب بلدها"، تشدد صياح على مفهوم المواطنة لدى السيدة ووعيتها لأهمية دورها كمواطنة في أكثر من فصل. (٢٤)

خلال المؤتمر العلمي للموسيقى العربية الذي أقيم في القاهرة في العام ١٩٣٢، كان لأم كلثوم إلى جانب عبد الوهاب مداخلة نظرية هامة، فقالت: "الإصلاح ضرورة، وهذا لا يعني أن نفقد روحنا لنؤكد حداثتنا". كما كان دورها لافتا مع عرض لبيانو معدل وفقا للون الشرقي، وقانون معدل. إن أم كلثوم كانت مغتازة وحاولت التلميح خلال حفل المؤتمر عن تقصيرهم نحوها ف"هي أيضا موسيقارة"، لذلك قامت للمرة الأولى بمداعبة العود والعزف خلال الغناء للتأكيد على

دورها المفقود في المؤتمر. وهنا ينصفها سحاب، ويعتبرها جزءا لا يتجزأ في مسار التطور الموسيقي الحاصل في القرن العشرين. (٢٥)

يؤكد سحاب بأن اهتمام أم كلثوم بقضايا الشأن العام بدأ فعليا قبل العام ١٩٦٧ بزمناً، لكنه بعد الثورة نضج وعيها القومي، فدعمت الثورة والنهج الناصري الذي يسري في عروقها منذ العلاقة مع سعد والفكر الإصلاحي النهضوي. من هنا بدأ ارتباط أغانيها بالاحداث الجارية في نطاق الأمة العربية. فناشدت مغنية الرئيس بعدم التتحي بعد هزيمة ١٩٦٧، كما رددت ألقانا إزاء النكبات والهزائم، وأخرها تعرض الأقصى للحريق من قبل السلطات الإسرائيلية. قدمت آنذاك "الثلاثية المقدسة" سنتين قبل وفاتها، وفيها كل مخزونها من المشاعر الدينية والوطنية والثقافية. ودون أي مزيدة، نوه الباحثان عن جهودها في دعم المجهود الحربي وإعمار البلد، حيث استفاضت صياح في تعداد المساهمات المالية السخية. كما ذكرت تأسيس "تجمع النساء" لدعم الجنود، وكانت أول من تبرع بمصاعها للمجهود الحربي ولعائلات الشهداء، ما دفع بالأخريات لحذو حذوها. وحازت على المزيد من الأوسمة، لتبدأ دورتها دولياً وعربياً كأول فنانة تمثل بلدها وتقدم الحفلات لدعم الوطن. للمرة الأولى تلعب فنانة عربية هذا الدور الوطني العظيم. فرحلة باريس كانت حدثاً هاماً تكلم فيه أكبر النقاد العالميين، حيث أدهشتهم هذه السيدة بحضورها وتأثيرها على الناس الذين كانوا في حال من النشوة، من السكر وحالة الغيبوبة الواعية. إنه الطرب، نشوة الأحاسيس كلها، مصطلح لا ترجمة له في الثقافات الأخرى.

تصورت في باريس عند النصب الفرعوني فقط. واستقبلت كما الكبار، إنها "قنبلة ناصر"، أرسلت آنذاك رسالة شكر إلى الرئيس الفرنسي (بلغتها الفرنسية المتينة كما تقول صياح) تقول فيها أنها ليست شخصية سياسية بل مغنية مصرية، فانتصرت مصر معها في الأولمبيا. وسام جديد وجواز دبلوماسي ولقب سفيرة كللوا نضالها الوطني. ففي "المنصورة" لقب الفلاحون إحدى أنواع "المنغا" باسمها. وفي "المنية" أقامت البلدية منحوتة لها بيد النحات الكبير "مختار" وضعت في المحطة الجديدة. أما في الخرطوم، كل البنات اللواتي ولدن في فترة الزيارة لقبن بأم كلثوم، حتى المدرسة التي افتتحت ذلك اليوم حملت إسمها، حتى قيل إن "أم كلثوم تعاطت ونجحت في السياسة بظرف يومين، وتفوقت على كل ما بذل بين البلدين خلال ١٢ سنة". لا شك أن الفن يوحد أكثر من السياسة. تلفت النظر "صياح" بأن السيدة كرمت المرأة السودانية الصامدة. وفي تونس، لقب شارع باسمها، وخاطبت المرأة التونسية داعية إياها إلى العمل والإنتاج. (٢٦)

مشت سيارة أم كلثوم على السجادة الحمراء من الميناء حتى التياترو الكبير (٢ كلم) لدى وصولها إلى بيروت. وفي ذلك دلالات سياسية قومية عميقة تعاكس سطحية ما كانت تروجه الصحف

الغربية من أن شهرة أم كلثوم عربيا هي مرتبطة بالمشروع الناصري المصطدم مع الغرب، والحال أن شهرتها مرتبطة بقدراتها الصوتية وموهبتها الفريدة وتعلق الجمهور العربي بها وبفنها: "... لأن مشروعها الفني مرتبط بالجدور الفنية للأمة... وقد تمثلت فيها قيم الحياة الريفية بعمق، مما شكل عنصر توازن في عملية التحديث الفني ومعايشة مؤثرات الحداثة". حولت أم كلثوم تجربتها ومشروعها إلى مدرسة بل إلى جامعة كبيرة لفريق من العباقرة يعملون بقيادتها، بجدية واستمرار. كما تفاعلت في مفصلين هامين من حياة شعبها: الأول في البحث عن الشخصية المصرية (١٩١٩ المرحلة الملكية) والثاني في البحث عن الملامح العربية بزعامة عبد الناصر. ف جاء النتاج الفني على درجة من التلاحم مع وجدان الأمة وتطلعاتها للنهوض. وما الحفلات الإذاعية إلا تجسيد فريد لتجربتها الجمالية المستندة إلى الارتجال مع تطوير عصري في الشكل والمضمون، إضافة إلى أن هذه الحفلات تحمل بعداً قومياً واضحاً. فهي أسطورة فريدة، لا بل هي الشخصية الأقوى والأشهر في العالم الفني العربي، توحد العرب كل خميس، تعبر عن الضمير العربي. عربوية خير ما قيل فيها إنها "تخدر العرب وتمنعهم من القتال". أما عبد الوهاب، فشهد أن: "الجمهور كان يتعامل معها وكأنها زعيمة، وليس كمطربة متميزة لا نظير لها". حتى الإنكليز كانوا يستعينون بأغنياتها ليبتثوا ما يريدون لفت النظر اليه... وأينما ذهبت، كانت الاستقبالات تفوق أي استقبال رسمي. يصف الياس سحاب كلامها في إذاعة "ب ب س" قائلاً "وكانها أحد المسؤولين الرسميين... إن الكلام معها أكثر متعة من السماع إلى غنائها". من المؤكد أن أي فنان لم يحظ من قبلها بهذا الموقع الاجتماعي: "تعامل وكأنها أحد أبطال الأمة". ويردد سحاب بأن هذه الازدواجية الريفية/المدنية شكلت المناعة التي عصمت أم كلثوم من أن تفقد ملامح الشخصية العامة المرتبطة بشعبها وبالاحاسيس الوطنية والدينية والاجتماعية والعاطفية.

ينتهي سحاب بالمقولة التالية: "إن حدود الدول العربية السياسية في القرن العشرين، ليست بالضرورة، بل ليست بأي حال من الاحوال مطابقة للحدود الثقافية". (٢٧)

أما عن نقابة الفنانين التي ترشحت إلى رئاستها أم كلثوم "لتقطع الطريق عن عبد الوهاب"، فلم يتمالك سحاب من معاتبته على هذا التصرف، "لأنها أرادت الحصول على النصب الأعلى في حقل الموسيقى والغناء". علما أن موقعها لم يكن بحاجة لهذا المركز، على العكس من القصبجي الذي كان من المتوقع أن تنتازل له عن المقعد نتويجا لجهوده الطويلة ومقامه الفني الرفيع، ولأفضاله الشخصية عليها في البدايات. ربما أيضا كانت تريد أن تعاقبه على ألحانه القوية لأسمهان وليلى مراد. لم يخف سحاب غيظه منها وأدانها، إذ كان يفضل أن تترك المكان للموسيقار العظيم تكريما له على عطائه للموسيقى العربية. (٢٨)

يستدعي هذا الأمر النقاش. فلا بد من التوقف هنا لمقاربة الموضوع من وجهة نظر نسوية. ربما أم كلثوم كانت أول امرأة في قيادة النقابة، وربما أنها كانت مستعدة للعمل والعطاء بروح مختلفة عن عبد الوهاب، وربما كانت لها رؤية ما في تطوير النقابة وهي التي كانت منفتحة على الحركات العالمية والتطورات التحديثية.

لم تكثر صياح لقضية النقابة علما أنها كانت فخورة بإنجازات السيدة وتبونها المبادرات القيادية على غير صعيد.

هل نشرع لها هذا الطموح أم ندين هذه الزاوية من مسلكها؟ فأم كلثوم كانت أيضا على عظمتها ترفض كل من يزاومها في رغبتها أن تكون النجمة الوحيدة لأعياد الثورة في كل عام، مما يفسر ابتعادها عن الملحن كمال الطويل الذي كان يزود عبد الحليم بألحان جديدة سنويا في المناسبات القومية. كما فشل العمل مرارا مع عبد الوهاب ولم يكتب لها ألحانا إلا بعد إلحاح من عبد الناصر. لا بد من الإشارة هنا أن هذه المهمة أصبحت واقعا بعد تألق كلاهما من جهته على عرش المجد الفني، وخاصة بعد اعتزال عبد الوهاب، وحلمه في كتابة ألحان إلى الأصوات الراقية، ومن أهم من أم كلثوم؟ وقد كرم "ناصر" أم كلثوم بـ"قلادة الجمهورية" كما قلدها عبد الوهاب. (٢٩)

يقول ميشال تورنيه: هذه المغنية المصرية التي نذرت نفسها زوجة (وفية) لكل الشعب العربي، شيء ما كالسيدة العذراء، ... تعيش فيها كرسالة عاطفية ولكن وطنية في الوقت ذاته.... هي روح مصر والعالم العربي.

لقد انفردت صياح بتعداد إنجازات أم كلثوم في قضايا الشأن العام بروحها السريالية ونفحتها النسوية. اما سحاب فقد حلل دورها السياسي على مقتضيات التطور الفكري الحاصل في تاريخ الأمة المعاصرة، ربما لم تستوقفه الشعارات النسوية التي لا يجب استعمالها الرجال عادة، إنما أعطاها حقها في تبوء قيادة "المملكة الكلثومية" وأدانها على الإستفراد بأعلى المؤسسات الموسيقية، وثمن سمو علاقتها بجمهورها، كما قيم خدمتها للوطن ونضالها في تعزيز الثقافة العروبية...

٥ - الأنوثة والذكورة

استبدل والد أم كلثوم لقب السيدة بالآنسة عندما قالوا له أن السيدة تشترط "وجود ارتباط أو زواج". إلا أن لقب السيدة عبر بشكل دقيق عن مكانتها الرفيعة، وتتساءل هي في إحدى المقابلات: "ينادوني السيدة للإحترام أم للعمر؟" وفي حديث حميم مع إحدى الصديقات، وعن اهتمام الجمهور بوضعها وعن إصرارها على لقب آنسة، تتقل عنها صديقتها: "تعلمين انني لا أؤمن

عطاء الرجال بشكل عام. إن العالم أكثر هدوءا وحنانا لو كان دون رجال. فنادرا ما تستطيع الإعتقاد على إخلاص الرجل، لكنني تعبت... ساتزوج...". فتسارع الكاتبة إلى تركيباتها الأسلوبية، وتغوص في الميثولوجيا المصرية لتستخلص أن القلب هو الأهم وليس "المادة". فتتعاطف مع "معاناة" السيدة، هذه السيدة التي تشاطر "السنباطي" نزعتة الدينية والتصوفية، والتي قال فيها الفنان العالمي "عمر الشريف": "قلة تلك النساء في الاسلام اللواتي استطعن أن يحققن قدرهن... في عالم فقير مكبوت جنسيا، غنت أم كلثوم للناس أن الحب الابدي هو الغنى عن الحب الزمني القائم على رغبات الجسد".

لا شك أن أم كلثوم عانت ما عانتها ليس من ظاهرة "إخفاء أنوثتها" فقط ولكن من إرغامها على التتكر لأنوثتها بوضع "القناع الذكوري" بشكل قد يكون مهينا لهويتها الجنسية. هل ترك لها أثرا ما في حياتها ام أنها تجاوزت المشكلة؟ لا نؤكد شيئا طبعاً ونعلم أنها تمردت على هذا الوضع لتسترد ذاتها، ولا بد أنه بقي البعض من الجروح العميقة التي تنزف بين الآونة والأخرى. وإلا كيف نفسر بعضاً من أقاويلها، خاصة في سيرة "صياح".

ردد الناس أقاويل غير دقيقة عنها، فاعترفت "أنها تزوجت الفن". لكنها في عمر متقدم، عندما تعبت وعانت... قررت الزواج من طبييها. في مسار الكتاب لوحث "صياح" بين الحين والآخر أن أم كلثوم عانت قهرا من زواج أحمد رامي التي كانت تكن إليه التقدير الكبير والمشاعر العميقة، هو أستاذها الأول في الشعر وهي ملهمته الأساسية. كما لوحث عن حبيب أو خطيب آخر كادت المطربة أن تقترن به، لكن الأمور لم تتيسر (٣٠). إلا أن شيئا من هذا القبيل لم يذكره سحاب. على العكس، كان يلمح إلى معاناة "القصبي" وكأنه يدينها بشيء من "القسوة الإنسانية" إذا جاز التعبير حيال هذا العاشق الولهان الذي كانت تحجم موقعه دائما. واكتفى سحاب بالإعلان عن زواجها من الطبيب، متحفظا من التدخل في أي تفصيل عاطفي يتعلق بحياتها الشخصية، ودون أن يغمز إلى أي قصة حب قد حصلت مع أحدهم، فقط ذكر مرارا قصة "خال الملك" الذي شكل حالة تكلم عنها بإعجاب وتعجب، وكأنه يتساءل منبهرا كيف لهذه الريفية أن استمالت خال الملك لحد "الإرتباط بها" وليس لمجرد علاقة عابرة... يقول عمر الشريف: "في الدلتا موت الفتاة اسهل من تلطيخ سمعتها، ... قلة هم في الحياة من تلقوا شهادات حب متنوعة ومجنونة... هل أحببت؟ فقط القلة علمت ما أخذته معها في اسرارها. ولكن من يبكي الغرام مثلها قد مر حتما بالمعاناة...".

تعاود صياح الرهان على أهمية الصداقة النسائية لدى أم كلثوم، صداقتها مع حورية اليونانية التي تفسر الاحلام، ول "عائشة" في طماي الظواهره بلديتها، ولصفيه، ولا تأتي مثلا على ذكر الدكتوراة نعمات فؤاد التي عرفنا السحاب أنها أيضا صديقة حميمة للسيدة، علما أنها مدونة في

سجل المراجع. تحيك حكاياتها حول العلاقة مع خادمتها وسلسلة من العراكات والمزاح الدائر بينهما باستمرار، فهي خادمة وفية وحاضنة وصديقة أيضا. وتضيف عن أم كلثوم أنها: "لا تشعر بأنوثتها إلا مع النساء الصديقات، تحب أن تصغي إلى حديث المجوهرات والموضة والطبخ... فتخلع عنها كفيتها، وتبدو كنساء القصص التي تقرأها سرا في غرفتها". كانت السيدة تحب أن تستأنس برأي السيدات الصديقات كونهن يتمتعن بأذن حساسة وصادقة وموضوعية، وهذا ما لم يكن من سمات الربع المحيط بها من الذكور. (٣١)

تكلمت صياح عن بيوت الأزياء التي كانت تتردد عليها أم كلثوم، وعلى الألوان التي كانت تميل إليها، وعن الشعر الأسود اللامع، وعلى كسماها (النحيل؟)، وعلى المخدة التي كانت تأخذها معها في كل تنقلاتها، وعن ثمرات وغيره نسائية وسخرية من المنافسات (٣١)، كلها أمور لم تسترعه اهتمام "سحاب" الذي بهره التدقيق التاريخي والفني في تحليل هذه الظاهرة الإستثنائية. وإن تكلم عن الغيرة "النسائية"، يذكر مسببات واستنتاجات: "أم كلثوم لم تثر غيرة المطربات اللامعات لأنها تنشد دون مصاحبة موسيقية وترتدي ملابس الذكور"، أو أن غيرة الآخرين بدأت فعليا حين انتقالها إلى النسق الدنيوي "حيث شعروا بعصر فني جديد ينافس الفن السهل، فبدأت المهاجمة لها".

هذا وقد فرد فصلا تناول فيه موضوع "الأنوثة والذكورة والكلاسيكية" في صوت أم كلثوم. يقول الكاتب: "من المؤكد أن الغنى الاستثنائي في الدرجات المنخفضة للصوت كان على حساب الطبيعة الأنثوية لهذا الصوت". كانت المطربة تكتم غيظها من الخلط بين صوتها وصوت الرجال عبر الهاتف، لكنها كانت سرعان ما تعالج المسألة بخفة ظلها وسخريتها المعروفة. ويتساءل سحاب: "لا ندرى إذا كان هذا الأمر مجرد حالة فيزيولوجية محضة، أم أن إخفاء الأنوثة في شكلها سنوات طويلة في العقدين الأولين من عمرها بارتداء الملابس الرجالية (في مجتمع محافظ يعد غناء الانثى عورة لا بد من إخفائها) قد أحدث فعلا نفسيا كان له أثر ما في حنجرة أم كلثوم". لا شك أن اختلاط ملامح الأنوثة والذكورة في صوت ذي مساحات استثنائية كان أحد أسباب التفرد الذي ميز صوتها لا بل كان الأبرز والأقدر وفقا لأصحاب الاختصاص. (٣٢)

كانت أم كلثوم تميل إلى مساعدة الشباب الموهوبين من شعراء وملحنين واستقطابهم إلى "بلاطها الموسيقي"، ربما للشعور بأنوثتها وأمومتها حيال طموح هؤلاء الشباب. ويذكر سحاب حال عمر مكايي عندما لحن لأم كلثوم، كان في حالة النشوة حتى الغيبوبة في سماعه وسماعه طيلة المساء تسجيل لألحانه بغناء من السيدة... (٣٢)

يدون سحاب ما يلي: "أبو العلا محمد يعمل من أم كلثوم وريثة له في مجال الدور (الذكوري)"، والدور هو أحد قوالب الغناء العام وليس الديني، وكان مخصصا للرجال. في ذلك قرار وإرادة ذكورية محض. فلا يمكن لأم كلثوم التي كانت صغيرة آنذاك أن تطلب أو حتى تجتسر أن تطلب بشيء ما هو من اختصاص الرجل. ولكن حين يقرر هو، هي تمتثل، خاصة أنه يحقق لها رغبة دفينية في داخلها.

يستنتج سحاب بعد التدقيق والتحليل أن صاحب القرار الأول في المرحلة الريفية كان الوالد، ساندته في القرار شخصيات أخرى... فيما بعد شاركت هي في القرار. ويذكر دائما، وذلك تأكيدا وحرصا على الذكورة وسلطتها، أهمية الأب ودوره ولو اضطر لإضافة ذلك بين قوسين، مشبها هذه العلاقة بازواجية حياة الريف وحياة المدينة. سوف يهيمن الأب عليها في ارتداء ثياب الرجل، فهي ليست بحاجة للإعتماد على شكلها كي تغني، ويرى العيب في رداء المغنيات المشهورات، يحتقرهن ويردد: "اللحم لا ينسي الصوت الرديء"، و"المغنيات اللواتي يظهرن زنودهن يردن غض نظر السامعين عن أدائهن".

في الواقع، يعاود سحاب في أماكن أخرى بيوح ب: "خوف السلطة الأبوية التي تتدنى أمام وجود معلمين كبار"، كما يخشى قرار الانتقال إلى الغناء العام. ويعزو تراجع السلطة الأبوية بعد احتراف الغناء مكررا دائما عبارة (بموافقة والدها) بين قوسين، وبسبب شخصيتها الفنية الناضجة. هنالك هاجس لديه من هذه السلطة التي باتت متفككة وشكلية نوعا ما، انتهت بتحول دوره من مايسترو إلى مررد في الجوق: "لكنه سيبقى معها ليحميها من هذه المدينة التي تدوس على القيم". فهي تجاوزت معارفه. كم كان يتمنى استعمال الصوت وحده، الصوت، تلك الآلة الوحيدة من صنع الخالق، ينشد دون آلة... ولكن، لم يبق أمامه سوى أمر واحد، اشتراط أن تكنى أم كلثوم "بالسيدة" لفرض الإحترام لها وللتمايز عن سائر المغنيات "الكوكيت" اللواتي يلقبن بالأنسات. (٣٣)

فعليا قرر الرجال إعطاء السيدة مجالا في إلقاء الدور، هم علموها، هم صنعوها، هم ثقفوها في الشعر واللغة والموسيقى الخ. وأصدروا قرارهم، وهو فعل ذكورة، هم أيضا أبدوا استياء من لباسها "الذكوري" وأوحوا لها عند التسجيل أن تكون الصورة أكثر لياقة.

من ناحية أخرى، ذكر سحاب استفتاء مجلة رزو اليوسف عن مطرب الشعب، وعلى ما يبدو حصل غش لصالح عبد الوهاب. لذلك باتت أم كلثوم متحفظة من الصحافة وتعتبرها غش وخدعة وسرقة وفعل ذكورة كما في القاهرة. كما تكلم عن أزمة علاقة أم كلثوم مع أخيها والسبب يعود إلى وضعه المتدني ودوره المحجم أمام صعود أخته. إنها علاقة الذكورة بالتسلط والولاية على الأنثى. كما أن فشل مشروع زواج السيدة من "عازف الكمان" مرده إلى خوفه من

صعودها(٣٤). إضافة إلى أن تشنج العلاقة بينها وبين عبد الوهاب في سبيل المنافسه على اعتلاء عرش المجد الفني، سبب لها "نوع من الإدانة المبطنه" من قبل الكاتب لمسؤوليتها في تأزيم الوضع. وأخيرا أشير إلى "الخوف الذكوري" من المرأة من خلال هذه الحادثة في فيلم "سلامة". لقد اشترط البطل "أنور وجدي" قبول الدور في حال وافقت أم كلثوم على تغيير النهاية التي تقتضي موت البطل، والتي رفضها "وجدي" خوفا من انعكاس هذه المأساة على واقعه (وسوسة).

لقد أثارت صياح العديد من مشاكل "الذكورة العربية" في القمص الجانبية المرافقة لسيرة أم كلثوم. هذا "الفحام" المغرم بأم كلثوم، يعنف امرأته لعدم إنجاب الوريث، يهددها بالطلاق: "اللعة للنساء...". هذا الشرس يتحول إلى نعجة أمام المعشوقة، يفضي بسره لصاحبه ويقول له: "إنها ساحرة الثعابين، الثعابين رقصت على سماع صوتها، والناس بكوا دموعا لسماعها"...

أحمد الفحام يكن للسيدة (حبا أفلاطونيا)، لا نستطيع أن نحب أم كلثوم وغيرها، هذه خيانة لهذه السيدة التي تخاطب الحواس كلها. ويفرح للأسعار المتهاودة ويحرم العائلة من معاشه لشراء بطاقة الدخول، سوف يلقاها... وتتأسف "صياح" بأسلوبها الروائي: "لا مكان للنساء في حفل السماع(١٩٤٩). فالنساء في البيوت مثل امرأة أحمد الفحام". وتضيف البعض يغار من هذه المرأة، التي تغني للحب، وللوطن، للسلطة وللرجال. ويبدو أن أم كلثوم كانت تريد وجود النساء في القاعة وشجعت على ذلك خاصة بعد الثورة التي غيرت الكثير في العادات والتقاليد... (٣٤)

قد يكون من المثير استعراض وجهة نظر أحد المستجوبين الفرنسيين في الفيلم الوثائقي الفرنسي "أم". لم يفهم هذا المنقف زحف الناس وغالبيتهم من العرب، من كل أنحاء أوروبا لحضور حفلها في الأولمبيا، ولا الطائرات الإضافية وأزمة المطارات، ولا أسعار البطاقات المرتفعة في السوق السوداء، ولا انبطاح الناس وانبهارهم في غناء تلك السيدة "المتقدمة في السن" والتي لا تملك "مفاتيح" المغنين والمغنيات الذين يقدمون حفلاتهم عادة على هذا المسرح العالمي... لغز يصعب على الغرب أن يفكك عناصره... إن استعمال تعابير تتعلق بالمفاتيح والتقدم في العمر في هذا السياق إنما يدل على وجهة نظر ذكورية بالنظرة إلى المرأة/النجمة.

وإذا ما استعرضنا رواية الكاتب، نرى أنه لا يترك مجالا إلا ويبيدي فيه مقارنة بين السيدة والموسيقار عبد الوهاب، يعمل على إنصافه، وعلى لفت النظر إلى عطائه. من الواضح أنه يكن له الإعجاب الكبير. ويبدو وكأنه هنالك إحياء إلى شكل من التحيز لصالح النجم والموسيقي والمطرب عبد الوهاب، الذي يمثل هنا الحصة "الذكورية"، بمواجهة التسلط والتمكن المتمثل

بشخصية نسائية أخذت الكثير من المكتسبات الذكورية ولو بإرادتهم. والكاتب من الشخصيات الذين نصبوا السيدة في أعلى المقامات، وعلى رأس المؤسسة الكلثومية، كما اعتمد المصطلحات السلطوية في وصف مسيرتها الإبداعية، فكان بلاط أم كلثوم، ومملكة أم كلثوم، ورحاب مستمعي أم كلثوم... (٣٥) بينما لم تذكر "صياح" سوى الشارع، شارع السيدة، حيث المقاهي التي تروج السماع لأم كلثوم، الشارع الذي سوف ينصفها ويجعل منها بطلة الخالدة... أسطورة لا تموت. كلا الباحثين يتناول القضايا المتعلقة بهواجس الذكورة والأنوثة من زاويته الخاصة. تهتم الكاتبة بصور تلون فيها الاهتمامات الأنثوية، وقصص الغرام، وتشجب الممارسات الذكورية التي تقمع النساء. بينما يتعمق الباحث بنقاط تطال المكتسبات الذكورية كما ورد.

المنظومة الكلثومية: أسطورة حدثية

استفاض الكاتب في التعابير التي ترمز إلى قوة وسلطة وتقدير وعظمة السيدة، فكان "العصر الكلثومي"، المملكة الكلثومية، مؤكدا على دور مشاركتها مع ملحنها في الإبداع، وليس مجرد مؤدية ممتازة لذلك الإبداع. فيعود لها تطوير الارتجال الغنائي في حفلاتها الحية، مما أكسبها ولو مؤخرا (١٩٦٧) "جائزة الإبداع الموسيقي". فهي "مسؤولة عن ٤/٣ التطور المنجز في القرن العشرين في الموسيقى العربية" وفقا للناقد كمال النجمي، أو كما يقول سحاب "إن كل من لحن لأم كلثوم قد تكلم". وحدها هذه السيدة/ الظاهرة مسؤولة عن البث الحي المطول في الراديو كل أول خميس من كل شهر، وإذا كانت مصر "أنجبت بين المطربين الرجال أصواتا اتقت فن الارتجال" غير أن أم كلثوم بلغت الذروة العليا والأرقى (٣٦). إنها تتمتع بمساحة صوتية تساوي (ديوانان كاملان)، وتتداخل مع الأصوات الرجالية، وتتملك من صوتها لتؤدي جملا تصل الى حد الإعجاز، وتزخرف الكلمات التي تصعب على الآلات، وتتحمل قوة ضغط هائلة أثناء الغناء أربع ساعات متواصلة، وحتى في عمر متقدم. إن في ذلك فعل استثنائي.

يعود لأم كلثوم أنها ربطت بين "الوصلة الوجدانية" في زمنها وما سبقه من فلسفة جمالية غنائية. فأحيت القديم بحلة متطورة في الأداء وفي اللحن. فيصف "سحاب" ما يطلق عليه "الإرتجال العبقرى" حيث يرتفع خيال المغني إلى درجة التماهي والتكامل مع خيال الملحن، بل يصل أيضا إلى حد الإضافة الإبداعية لخيال الملحن. ويستنتج أنه لا بد من دراسة فن الارتجال لاستقراء العلاقة السحرية بينها وبين فرقته الموسيقية من جهة، وبينها وبين الجمهور "المستغرق في نشوة استماع حقيقية". هذا "الارتجال الموسيقي الجماعي" هو تجربة تفوق كل التجارب الموسيقية الأخرى، إنها تبذل "آخر قطرة من دمها ومن أعصابها ومن جهدها" ولا تبخل بالإعادة إذا أُلح

الجمهور (الذي كان يبتزها) حتى لو لم تكن هي راغبة... (٣٧)، أما الجو، فكان في "حالة الطرب والنشوة"، والإصغاء المتهيب والوقار بأعلى درجاته... إنها مدرسة، وموهبة استثنائية في عصر شديد الخصوبة. هضمت مؤثرات الغرب وأعدت إنتاجها مع احترام روحية الموسيقى العربية. وكانت حافظة للتراث الموسيقي لدرجة قول السنباطي: "كانت أجمل عقبة في طريق تطور الموسيقى العربية... إنها آخر المنشدات كما الرسول خاتم الأنبياء" (٣٨). هذا التشبيه قد اضاف الكثير إلى مقدارها... صحيح أن "صانعي أم كلثوم" قد غيروا النظرة السائدة في المجتمع الشرقي حيال مغنيات الفن الراقي، إلا أن الفضل الكبير يعود لها ولالتزامها قيم مجتمعا على حد وجهة نظر الكاتب، وأيضا المحلل لثقافة متجزرة حول مبدأ "شرف المرأة". لقد تكبدت الكثير من الجهد والتعب والدراسة لعدم الإنجراف إلى مستويات الفن الهابط، واعتبرت بجد حافظة للتراث الغنائي الذي هو الأساس في الإنشاد الديني الشرقي بشقيه المسلم والمسيحي. أما الكاتبة فقد صبغت سيرتها بألوان أسطورية خالدة.

أم كلثوم هي فعل إرادة تحدث كل الصعوبات لتبقى حكاية فريدة، ظاهرة لا تتجدد إلا ما ندر بين يقظة ونكبة...

حقا اجتهد الرجال في صياغة أسطورة نسائية ثوروية مفصلية في مسيرة العربيات عامة ولكن فعليا كانوا يستشفون أنها حالة خاصة لأنها "آخر المنشدات"...

المراجع

- ١- ايزابيل صياح: أم كلثوم، Denoel، ١٩٨٥، ص. ٩-١٥-٢٧
- ٢- الياس سحاب: أم كلثوم: السيرة، موسيقى الشرق، ٢٠٠٣، ص. ٤٢-٤٧-٦٥
- ٣- الياس سحاب: ص. ٤٢
- ٤- سحاب: ص. ٤١
- ٥- سحاب: ص. ٤٦
- ٦- صياح: ص. ١٧٣-١٠٢-١٢٤
- ٧- سحاب: ص. ٥٣-٦٣-٨١
- ٨- سحاب: ص. ٨٥-٢٣٧-٢٣٨
- ٩- صياح: ص. ٤١-٣٨
- ١٠- صياح: ص. ٦٧
- ١١- سحاب: ص. ٧٩-٨١

- ١٢-سحاب: ص. ٤٥-٤٦
- ١٣-صياح: ص. ٥٦-٧٥-٤٢-٦٢
- ١٤-سحاب: ص. ٥١
- ١٥-سحاب: ص. ١٠٤
- ١٦-سحاب: ص. ٨٣
- ١٧:سحاب: ص. ١٢٣
- ١٨-صياح: ص. ٧٧-١٤٧
- ١٩-صياح: ص. ١٤٣-٦٥-١٦٥-١٩٤
- ٢٠-سحاب: ص. ٦٢-٢٤٦-٨٦-٨٨
- ٢١-صياح: ص. ٨٩-١٠٥
- ٢٢-سحاب: ص. ١٣٦-١٤٤
- ٢٣-صياح: ص. ١١٣-١٢٥-١٢٦
- ٢٤-صياح: ص. ١٤١-١٤٤-١٦٤-١٦٨
- ٢٥-سحاب: ص. ١٠٨-١١٠-١١١
- ٢٦-صياح: ص. ١٤٤-١٧٢-١٧٣-١٨٤-١٩٤
- ٢٧-سحاب: ص. ١٢٦-١٢٨-١٢٩-١٤٦-١٤٨-١٤٩
- ٢٨-سحاب:ص. ١٣٨-١٤٠-١٤١-٣٢٣
- ٢٩-سحاب:ص. ١٧٣-١٧٨-٢٩١
- ٣٠-صياح: ص. ١٣٥-٨٩-٦٥
- ٣١-صياح: ص. ١٣٩-٩٨-٥٤
- ٣٢-سحاب: ص. ٢١٨-٣١١-٣٠٤
- ٣٣-سحاب: ص. ٣٦-١٠٣-٤٣-٩٩
- ٣٤-صياح: ص. ١٤٩-١٢٨-٥٩-٦١-٧٩-١٢١
- ٣٥-سحاب: ص. ١١١
- ٣٦ - سحاب: ص. ٢٠٥-٢٠٨ و ٢١٥-٢١٦
- ٣٧-سحاب: ص. ٢٢٠-٢٢٥-٢٢٧
- ٣٨-سحاب: ص. ٢٢٨ إلى ٢٧٠

=====

